طرابلس الغرب خلال القرن الثامن الهجري بمداد الرحالة التونسي التجاني

أ. أم الهناء محمد البسط.

قسم التاريخ والآثار/كلية الآداب/جامعة سرت/ ليبيا

ملخص:

المحروسة أو عروس البحر، كما عرفها المؤرخون هي مدينة طرابلس الغرب، ومنهم ياقوت الحموي ضمن كتابه معجم البلدان، والطاهر الزاوي في كتابه جهاد الأبطال في طرابلس الغرب، ومن المستشرقين أتوري روسي صاحب كتاب تاريخ طرابلس وطرابلس الغرب1922م، وترجم إلى تاريخ ليبيا منذ الفتح العربي حتى سنة 1911م، ومر بها الرحالة، فكانت وجهتهم أما كطريق عبور للحج، أو وجهة لهم لذاتها للتعرف عليها وكشف أسرارها، حيث امتازت هذه المدينة بالنسيج الاجتماعي المترابط، وبالثقافات المتعددة، و زارها الكثير من العلماء والرحالة، وكتبوا عنها وتفننوا في وصفها، والحديث عنها، ورسم الصور لها، فكأنما سحرتهم وفتنتهم بجمال أسوارها ومساجدها وقبورها وزواياها، توالت عليها الدول والأُسر الحاكمة، وكل من دخلها وحكمها أضاف لها فن من فنون العمارة، وأثناء الفتح الإسلامي كانت ممراً لفتح بلاد المغرب الإسلامي، كما كانت مقصداً للقناصل والسفارات، حيث كان جل همهم جمع المعلومات عنها، فشغلوا أنفسهم بجمع المخطوطات التي كُتبت عنها ونقلها لبلادهم.

كلمات مفتاحية: الرحالة، الأسوار، المساجد، المقابر، العلماء.

مقدمة: ـ

تُعَدُّ كتابات الرحالة من أهم المصادر التاريخية؛ إذ أنها تحتوي على الكثير من المعلومات التي قد لا تتوفر في أي مصدر، كما تُعَدُّ رحلات الجغرافيين المسلمين من أهمها، فتلك الأسفار التي جابوا بها الصحراء طولاً وعرضاً وهم يرون رمال الصحراء ويتأملونها، ويرون العناصر البشرية التي تسكنها، وعاداتهم وتقاليدهم وسبل عيشهم؛ فأصبحوا أقدر الناس على وصف تلك الملامح ونقلها لنا.

وبما أن طرابلس الغرب مر بها العديد من الرحالة المسلمين، الذين وطئت أقدامهم أرضها، وعاشوا بين أهلها، فدونوا نمط حياتهم وسبل عيشهم، فدخلها (العبدري ت703.هـ/1205م)، و(ابن بطوطة ت779 هـ /1381.م)، والعياشي (1090.هـ /1692.م)[1]، والرحالة التونسي التجاني الذي سيكون مصدرنا الأساسي في هذه الدراسة، وغيرهم الكثير مما عني بتاريخ طرابلس الغرب فكتب عنها، وعن مظاهرها العمرانية ووصفوها، وذكروا مكوثهم بها.

تتمثل أهمية الدراسة في الآتي: ــ

1ـ حالة التقدم العمراني والثقافي والاجتماعي، الذي وصلت إليه طرابلس الغرب من خلال رحلة التجاني.

2 ـ الوقوف على العديد من الشخصيات البارزة التي كانت تقيم في المدينة، ومحاولة إبراز أعمالهم وإنجازاتهم.

إشكاليات الدراسة تكمن في الآتي: ـ

1ـ ما كشفه كتاب رحلة التجاني من أسرار وخفايا حول تاريخ طرابلس الغرب.

2ـ محاولة التعرف على الغموض الذي يلف الكثير من الأحداث حول تاريخ ليبيا عموماً، وطرابلس الغرب خصوصاً.

أولاً: وصول التجاني إلى طرابلس الغرب:

1 ـ ظروف الرحلة:

الرحالة التجاني مر بطرابلس الغرب في رحلة فريدة من نوعها، فأسهم في كتابة تاريخها من خلال ما شاهده ورأته عيناه، ووضع كل ما شاهده في مخطوط أطلق عليه الرحلة التجانية، وقد درسه العديد من المهتمين بالتاريخ الإسلامي، ومنهم حسن حسني عبد الوهاب، وتُعَدُّ طبعة هذا المخطوط هي الصادرة عن وزارة الإرشاد القومي في تونس سنة 1958م.

لأهمية هذه الرحلة في الاطلاع على تاريخ البلاد الليبية، وما يكتنفها من أحداث؛ فقد تناولها المستشرقون بالتحليل والاطلاع عليها، ومنهم المستشرق ألفونص روسو، الذي عنى عناية كبيرة بجمع المخطوطات الإسلامية، ونقلها إلى فرنسا أثناء عمله كقنصل لبلاده في تونس خاصةً، وبلاد المغرب الإسلامي عامةً، مورداً خلال ترجمته احتواء هذه الرحلة على معلومات لا ترد في أي كتاب آخر.

أعتمد ألفونص روسو ترجمة رحلة التجاني، معتبراً إياها من أهم مصادر دراسة التاريخ الليبي عموماً، وتاريخ طرابلس الغرب خصوصاً؛ فأصدر ترجمته لهذه الرحلة بباريس سنة 1853م، بعدما كان قد عمل على ترجمتها في نظام فصول ضمن الدوريات الفرنسية المعروفة (المجلة الأسيوية) في الفترة ما بين 1852م ـ 1853م [2]، ترى الباحثة أن نقل مخطوط بهذه الأهمية إلى اللغة الفرنسية يعمل على توضيح الكثير من الحقائق التاريخية عن تلك الحقبة الإسلامية التي يحتاجها المهتمين بشؤون شمال إفريقيا في التاريخ الإسلامي.

خرج الرحالة والأديب التونسي أبو محمد عبدالله بن محمد بن أحمد التجاني في القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) إلى الأراضي الليبية متوجهاً من بلاده تونس، لتصبح فيما بعد من أهم المصادر التاريخية لدراسة تاريخ ليبيا والوقوف عليها، وليس هذا وحسب بل أكثرها دقة لما احتوت عليه من معلومات وفق ما شاهده الرحالة حول التاريخ الثقافي والاجتماعي والفكري، وكل ما يتعلق بآثارها، فكانت وصفاً واقعياً للتاريخ الليبي [3].

وفق ما ورد في رحلة التجاني أنه قد عزم على الخروج إلى الأراضي الليبية، التي ستكون في طريق مروره لتأدية فريضة الحج ولكن نجده يصل الأراضي الليبية، ويقيم بها ما يقارب من السنة للاستراحة ليكمل فيما بعد رحلته، فبعد أن توجه إليها سنة 708 .هـ /1210م عبر أراضيها، وسار في سهولها ووديانها، وخالط أهلها الذين اعتبروه ضيفاً مرحباً به بينهم، وما لبث أن وصل إلى طرابلس الغرب، التي أعجب بها، وفتنته عمارتها وسكانها؛ ليجعل إقامته بها لما يقارب السنة والنصف سنة في منطقة القصبة [4]، وأعتقد أن السبب وراء اختيار التجاني المكوث في طرابلس الغرب كان في أول الأمر للراحة، ولكن نتيجة ما لقية فيها من ترحاب وحسن ضيافة؛ أختار النزول بها طوال هذه المدة الزمنية، إذ أن التجاني لم يذكر سبب إطالته المكوث بالمدينة، ولكن هذا ما يستقى من وصفة لها ولجمالها.

لقد كان الرحالة التجاني لا يوفر جهداً كلما أتيحت له الفرصة بأن يصف أهالي البلاد الطرابلسية بالكرام لنيل أخلاقهم وحسن معاملتهم الأمر الذي شجعه على الإقامة بينهم فترة من الزمن [5]، مدركاً أن هذه المعاملة تنبع من القلب ودونما تكلف.

2 ـ انبهاره بطرابلس الغرب:

لقد تحدث التجاني عن طرابلس الغرب بدقة متناهية، فنجده يصف كل ما تقع عليه عيناه من عمارة، وسلوك للسكان، وأبنية، وما تحتويه من شوارع؛ جعلته يمعن في الحديث عنها

بدقة واهتمام، كان أول ما تحدث عنه التسمية التي رأى أنها تُنطق مختلفة في المصادر العربية، فلفظ طرابلس نجده يرد عند اللغويين ومنهم الحموي بفتح الطاء، وضم الباء واللام، وسين مهملة[6]، وعند البكري في كتابه (المسالك والممالك) نجده يقول:((وترجمة هذه اللفظة باللغة الإغريقية ثلاث مدن)) [7]، في حين يكتبها البعض بالألف أطرابلس ذاكر أقوال شاعرها أحمد بن يحيي:

لقـد طـال شـوقي إلى فتيـة حسان الوجوه بأطرابلس[8]

وفي رأي ثالث أورده، أنها تُكتب بتسكين اللام بطرابلْس، ومن ذلك ما ذكره أبو الحسن علي بن أبي بكر:

سري فرساً في سيرة، ولو أنه خلي من الأوزار سار ، ولم يرس

سعي سعي طماح لأبعد غـاية فكانت له دار المقام طرابلس[9]

وبرأيه أن الاختلاف راجع للتفريق بين طرابلس الشرق في بلاد الشام، وطرابلس الغرب في إفريقيا، مستدلاً بقوله: ((وذكر لي بعض النبهاء من طلبتها أنه وقف لبعضهم على أن المختار في طرابلس الشام: أن تُكتب دون ألف تفرقة بينهما))[10]، وبهذا نرى أن التجاني أستهل كلامه عن طرابلس الغرب من حيث التسمية، واختلافها من مصدر لآخر[11].

بذلك تتضح قدرة صاحب الرحلة على وصف البلاد الطرابلسية بمعاني جعلت من يقرأ رحلته يشعر وكأنه يرى المدينة بعينه، ويتخيل أسوارها وشوارعها، وهذا ناجم عن امتلاك التجاني الموهبة الأدبية واللغوية، التي جعلته يختار وينتقى هذه التعابير الدقيقة في الوصف والتحليل.

لقد أخذ صاحب الرحلة يصف الهواء في المدينة ومدى نقائه، وروعة جوها، وأشعة الشمس الناصعة البياض، وارتياحه من استقبال سكانها له[12]، وما لبث أن شرع في وصف شوارع المدينة، ومظاهرها العمرانية، وما يتخللها من جمال ودقة في البناء [13].

ثانياً: ـ العمارة في طرابلس الغرب

1 ـ سور المدينة وشوارعها وأبوابها: ـ

لقد حاز سور طرابلس على إعجاب شديد من قِبل التجاني، معبراً عنه بوصفه أنه لم ترَ عيناه مثله، وبنائه حُظي باهتمام وعناية في التشييد والتصميم، حيث يأخذ في التأكيد على التطور العمراني الذي شهدته المدينة، والتقدم في أساليب الدفاع التي وصلت إليها المدينة من خلال سورها الذي أمن لها ناحيتي البر والبحر، ويُعَدُّ هذا السور خماسي الأضلاع، وبه أبواب مخصصة لمعرفة الداخل والخارج[14] ، ومن شدة إعجابه بهذا السور نجده يقول ((... ورأيت بسورها من الاعتناء، واحتفال البناء ما لم أره لمدينة سواها)) [15].

أما شوارع المدينة فأخذ يستعرض نظافتها واتساعها وهندستها المستقيمة على هيئة تشبه الشطرنج، ممَّا يبعث لدى الماشي بها شعور بالراحة والسكينة[16].

والملاحظ عناية التجاني بوصف أبواب المدينة بدقة متناهية، فسرد أبوابها باباً باباً، مبتدئاً بباب الستارة، ومنتهياً بباب البر؛ ولعله بدأ بباب الستارة لكونه أهم هذه الأبواب، والرئيس لسور الستارة، الذي يختلف عن سور المدينة من ناحية القصر، وترجع أهميته لدولة بني عبد الواحد حيث يذكر التجاني أن الذي أوصى ببنائه هو الشيخ أبو محمد عبد الواحد الحفصي، بعد نزوله بطرابلس الغرب شهر شعبان سنة 614.هـ /1208م، وهو الشيخ الذي يتصف بعلمه وورعه، وعمل على تعليم الفقه بطرابلس فترة من الزمن، وفق ما كتب بباب الستارة [17].

أما الباب الذي يلي باب الستارة فهو **باب هوارة** الواقع في واجهته؛ ويُعرف بباب عبد الله الذي يرجع للأغالبة نسبة للأمير عبد الله بن الأغلب [18]، كذلك يُعرف بباب هوارة لوقوعه في منطقة نزول قبائل هوارة، والتي تقيم جهة شرقي المدينة، ويمتاز هذا الباب بشهرة واسعة فينزل به الكثير من العلماء، الذين زاروا المدينة، فيتوجه لهم طلبة العلم الذين لا يستطيعون مغادرة البلاد للبحث عن العلم، ومنهم أبو إسحاق الأجدابي[19]، وابن عبيد[20] وغيرهم ، كما ذكر التجاني أن بهذا الباب بطحاء متسعة تُعرف لدى الأهالي بموقف الغنم؛ لأنهم كانوا يبيعون بها الأغنام والمواشي، وبالباب يوجد مسجد للصحابي عمر بن العاص، الذي دخلها فاتحاً في خلافة عمر بن الخطابﷺ، وقد اقتطع عمر بن العاص من هذا المسجد موضع دُفنت به أم سالم بن مرغم والعديد من ولده وضرب عليه بباب[21].

لعله تجدر الإشارة إلى أن باب هوارة به فتحة في سور طرابلس القديم من الجهة الجنوبية، توصل إلى مضارب قبيلة هوارة البربرية خارج السور شرقي المدينة وجنوبها، وهذه التسميات كانت زمن الفتح الإسلامي، ثم بعد جلاء القبيلة لم يعد للتسمية وجود؛ حيث أُستبدل أسمه بسوق المشير في الفترة ما بعد العصور الإسلامية نتيجة رحيل قبيلة هوارة من مضاربها بالناحية الجنوبية [22].

أما الباب الذي حظي باهتمام التجاني وكان حريصاً على تدوين كل ما يتعلق به بعد بابي الستارة وهوارة فهو **الباب الأخضر**، فذُكر أنه يقع في الجهة الشمالية من المدينة جهة البحر، ولقد حرص على إيراد موضع الباب بدقة، والحديث عن كل التفاصيل المتعلقة به من حيث صلته بباب الستارة إذ قال: ((ولم يصلوا هذه الستارة بالبحر حين بنوها ، وإنما انتهوا بها إلى الباب الأخضر...)) [23].

في حين واصل وصفه لتلك الأبواب، التي ما أخفى إعجابه بعمارتها، ودقة هندستها، وذكر تفاصيلها الدقيقة من حيث الاتجاه وقربه أو بعده من البحر، وبأنهائه الحديث عن

باب الستارة وهوارة والأخضر أسترسل **بباب البحر**، الذي يتكون من فتحتين مزدوجتين جهة ساحل البحر ملاصقاً لضريح سيدي عبد الوهاب القيسي، أما موقعه من جهة السور فهو في الناحية الشمالية الشرقية للمدينة [24].

الملاحظ عن باب البحر أنه أكتسب هذه التسمية لأنه يفتح جهة البحر، ولم تتغير تسميته حتى هذا الوقت فلازال السكان يعرفونه بنفس الاسم.

وكما يوجد باب البحر يوجد باب البر الذي يقع في مواجهته، ولقد أمعن التجاني في وصفه، ونظَّم في ذلك بيتين من الشعر؛ لإبراز الإطلالة لهذا الباب، والراحة النفسية التي يحظى بها من ينزل عنده إذ قال:

لوقفة عند باب البحر ضاحية أو باب هوارة موقف الغنم

أشهي إلى النفس من كسر الخليج ومن دير الزجاج، وشاطئ بركة الخدم[25]

وأنهى التجاني حديثه عن أبواب طرابلس الغرب بمدح باب البر وجماله، ولحظات السكينة التي يحظى بها زائرها، وكيف يجتاحه شعور بالرغبة في البقاء بها، ويطيب له العيش على أرضها، وحسن معاشرة أهلها الذين يجعلونه يرغب في الإقامة بينهم ليتحدث عن دور العبادة.

2 ـ دور العبادة: ـ

انتقل التجاني في رحلته إلى جزء آخر من المظاهر العمرانية التي شهدتها المدينة، ولاحظ به تطور هائل يشد الانتباه، ويجذب الناظر ويذهل له، وهو الجوامع والمساجد التي توجد في مدينة طرابلس الغرب، بالإضافة إلى كون هذه الجوامع والمساجد قد بُنيت في أوقات مختلفة من الفتح الإسلامي للمدينة، ومن تعاقب الأُسر الحاكمة عليها، كما أنه قد أطال المكوث

في هذه الجوامع والمساجد، وكان حريصاً على الدخول إليها والاستماع إلى مشايخها، والطلاب الذين يتلقون دروس العلم بها، وهذا ما تمَّ الوقوف عليه في مواضع مختلفة من دراسة الرحلة التجانية.

لقد تحدث التجاني عن العديد من المساجد في طرابلس الغرب، وكان أولها **الجامع الأعظم**[26]، وقد أشار إلى أنه يقع وسط مدينة طرابلس الغرب، وقد بدأ بنائه بنو عبيد وأتمه خليل بن إسحاق سنة 30هـ [27]، وذكر التجاني أنه يقع ما بين باب البحر وباب الأخضر وقال عنه: ((... جامع كبير متسع على أعمدة مرتفعة، وسقفه حديث التجديد، وبه منار متسع، قائم من الأرض على أعمدة مستديرة، فلما تم نصفه سدس ، وكان بنائه مكمل للمئة الثالثة)) [28].

ولقد زار الجامع الأعظم الكثير من العلماء الليبيين، فمنهم عمران الطرابلسي الذي ولي الإمامة والقضاء والخطابة بهذا الجامع، وتوفي عام 660.هـ/1284.م[29]، وتجدر الإشارة هنا إلى أن الجامع الأعظم قد أستبدل أسمه باسم مسجد أحمد باشا الموجود بسوق المشير [30]، ولعل جامع الأعظم قد أُزيل وشُيَّدَ عوضاً عنه مسجد أحمد باشا، أو أنه نفس الجامع ولكن أُجريت عليه بعض التعديلات.

ومن المساجد التي أشار إليها الرحالة التجاني في رحلته مسجد العشرة، الذي شُيَّد في عهد أسرة بني مطروح [31]، أما سبب التسمية فيرجع لمداومة عشرة شيوخ من شيوخ البلد الجلوس فيه؛ لمناقشة شؤون المدينة والتشاور حولها والوقوف على أحوالها، إلاَّ إنَّ هذا الاسم الجميل قد زال عنها بعد دخول الموحدين إلى المدينة سنة 555هـ/1179م[32].

وتحدث التجاني عن جامع الشعاب، الذي يقع خارج سور المدينة خلاف مسجد العشرة، من جهة سيدي أبو محمد عبد الله الشعاب [33]، الذي كان له الفضل في العمل على إتمام

بنائه، بعد أن تعذر ذلك على القائم ببنائه وهو من أهل المدينة في أوائل المئة الثالثة الهجرية، حيث كان سيدي محمد يعمل نجاراً بطرابلس الغرب، والمعلوم أن هذا الاسم لا يزال يعرف به المسجد حتى هذا الوقت، ولقد دُفن سيدي محمد بعد وفاته بالقرب من المسجد، ويُطلق عليه جبانة الشعاب، وهي ملاصقة للمسجد [34].

وذكر أيضاً مسجد الجدة أو الجدود، فقد ذكر أن جدة من جدات بني الأغلب الذين حكموا شمال أفريقيا وقتاً من الزمن قد قامت بتشييده، وبعد ذلك زال عنه هذا الاسم وسُمِّيَ بالمسجد البارزي؛ لأنَّ أبي حسن البارزي قد نزل به، ويقع خارج الأسوار المدينة [35].

وكذلك مسجد الخطاب، الذي يقع أيضاً خارج أسوار المدينة من الجهة الشرقية على البحر، ويرجع بناؤه إلى سيدي خطاب البرقي الطرابلسي المكني أبا نزار، الذي له كرامات عُرف بها في ذلك العهد [36].

ومن المساجد التي نالت أعجاب الرحالة ولم يجد بُدَّاً من ذكرها؛ لما لها من شهرةٍ ومكانةٍ، مسجد المجاز الذي سكنه ونزل به الفقيه الورع أبي الحسن علي بن أحمد بن الخصيب، وقد سكنه حوالي أربعين عاماً، وعلق عليه التجاني بأنه آخر ما وجد من المساجد في ذلك الوقت [37].

يتوقف التجاني بمسجد المجاز عن ذكر مساجد أخرى، ولكنه وصف دور عبادة أخرى قد وجدها في المدينة، منها مصلي البلد الذي يُعَدُّ حديث مقارنةً لما وصفه التجاني فيما سبق في العمارة [38]، وشمل على مقبرة يُقال لها ((جبانة المصلي)) في الجهة الشمالية لطرابلس الغرب، وتطل علي جامع عمورة الواقع في بن عاشور[39].

لم تكن الجوامع والمساجد هي ما ذكره الرحالة في رحلته فحسب، وإنما وجدت إلى جوارها وبالقرب منها كنيسة قديمة جداً، حسب مدونات صاحب الرحلة مستنداً على

عبارة كُتبت على جدرانها مفادها أن الكنيسة بُنيت من مال تمَّ الحصول عليه من تجارة الزيتون ((غلة زيتونة))، في الفترة التي ظهر فيها نبي من بلاد الحجاز يُدعي محمد بن عبد الله في بلاد العرب [40]، وإن كانت الباحثة هنا لم تلاحظ أي ذكر لليهود لدى الرحالة في وصفه ــإن قلنا الدقيقــ فهو يذكر الجوامع والمساجد والكنيسة، ولكنه لم يلاحظ أي وجود لليهود في داخل أسوار المدينة أو خارجها [41].

ثالثاً: المرافق في طرابلس الغرب

1 ـ الحمامات والآبار:

لقد تحدث التجاني عن العديد من المرافق، وكان أولها الحمامات، والتي جذبت التجاني كان أبرزها حمام البلد، الذي دخلة فأمعن في وصفه، فقال: أنه يوجد إلي الجوار من القصبة، وفيه ساحة صغيرة، ويمتاز بالجمال والحسن والدقة في البناء، وأنه محط زيارة من أهالي المدينة [42].

يأتي حمامان عدا حمام البلد في المرتبة الثانية، ولكنهما ليسا بجماله وحسنه وشدة بهائه وجاذبيته، يقعان داخل المدينة، وإلى جانب الحمامات توجد آبار وعيون، وركز التجاني على ذكر عذوبة العيون بالمدينة، ومنها عيون تنبع من مصلي البلد القديم الذي بُنَي في سنة 306.هـ /930.م، ويعرف بسواني العيون، أستخدمها الأهالي في الشرب منها؛ وذلك لما امتازت به من عذوبة، وعُدِّت من معالم البلاد البارزة عند وجود صاحب الرحلة بها، وهذه العيون تصب في البحر وإلى القرب منها بئر توجد به شجرة الجميز الوحيدة [43]، ولعله الموضع الذي يُعرف بسوق الثلاثاء حالياً [44].

أما بئر أبي بكر فهي مشهورة جداً لدى الأهالي، واعتادوا سقاية بهائمهم عليها، بالإضافة إلى شربهم منها رغم ذكر التجاني ــعندما وقف بهاــ أنها غير صالحة للشرب

بشهادة أهلها وينفرون منها، ومن حيث الموقع فهي تقع داخل أسوار المدينة، غير أنه قد اختفى أي أثر لها حالياً [45].

ومن إشارة التجاني شجرة الجميز الوحيدة، التي نبتت عند البئر الواقع قرب عين سواني؛ مما يجعلنا نشير إلى أن أهالي طرابلس الغرب كانوا يعتنون بزراعة الأشجار، ومنها العنب والنخل والتين، ويطلقون على شجرة التين اسم كرمه، والمعروف في الاصطلاح أن الكرمة هي شجرة العنب لا التين، كما يطلق عليها أهالي طرابلس الغرب منذ ذلك الوقت وحتى هذا الزمان [46]، ويتفق معهم في ذلك أهالي مدينة سرت.

2ـ ميناء المدينة ومرساها: ـ

قال التجاني يصف الميناء وأرسوا السفن به: (... وتصطف هنالك اصطفاف الجياد في أوذيها) [47]، والميناء يقع خارج باب البحر، ويشرف على الساحل، ويوجد به مرسى فسيح يدهش الناظر إليه[48]، ويُعَدُّ ميناء المدينة ومرساها من الأماكن الحيوية فيها على مر العصور، وأستمر هذا النمو والازدهار به حتى الوقت الحالي، وشهد الكثير من الأعمال التوسعية والاهتمام به[49].

3ـ المدارس ودور العلم والعلماء: ـ

حازت المدارس على أعجاب صاحب الرحلة، فلم يوفر جهداً في مدحها واستعراضها، وأكثر المدارس التي وصفها كانت المدرسة المنتصرية التي قال عنها: (وبداخل البلد مدارس كثيرة، أحسنها المدرسة المنتصرية التي بناها الفقيه أبي محمد عبد الحميد بن أبي البركات بن أبي الدنيا الطرابلسي، فيما بين سنة خمسة وخمسين إلي سنة ثمانية وخمسين، وهذه المدرسة من أحسن المدارس وضعاً، أحسنها صنعاً) [50].

يقع بين المدرسة وباب البحر القوس الروماني، الذي أُعجب به التجاني أشد العجب، ويرى أنه من المباني العجيبة، فيأخذ شكل القبة من الرخام المنحوت المتناسق الأعالي، والتي يصعب على مئة من الرجال حملها، وأحتار في كيفية وضعها ونقشها، فوصفها بأنها مصورة بأنواع التصوير العجيبة، ونوه إلي أنه قد حاول بعض الكبراء هدمها، وأخذ رخامها، فبني مسجد عليها يصلي به؛ ليحول دون خرابه وفق علم أهالي المدينة، ولعل هذا المسجد هو مسجد البازي سالف الذكر، الذي عمل أحد الرجال على الحفر تحته؛ لأخذ الرخام منه، فخرج له الشيخ عثمان بن مخلوف وطلب إليه الكف عن هذا العمل، ولكنه رفض التوقف؛ لأن والي المدينة أمره بذلك، فما كان من الشيخ إلاَّ أن قال: اللهم احصد عمره فهلك الرجل، ويعرف بمسجد المستجاب لهذا السبب، ويوجد على الجهة الشمالية أسطر مكتوبة بخط روماني [51]، وبهذا الموضع يوجد جنينة زرعت حبقاً[52]، أُعْجِبَ بها التجاني، فأمعن النظر فيها فقال:

يا حبذا نسمة هبت لناشقها غب الكرى سحراً من روضة الحبق

حسبها عندما هبت وقد نعشت ببلة من نداها روح منشق

قرنفل الهند قد وافي التجار به محافظين علي نشر له عبق [53]

واستمر التجاني يصف علماء البلد الذين قابلهم أو تداعى إلى مسامعه خبرهم، ومنهم الشيخ الإمام الحافظ أبو فارس عبد العزيز بن عبد العظيم بن عبد السلام بن عبد العزيز بن عبد الله بن عبد العزيز بن عبيد، الذي نال برائيه معارف مختلفة، وله علم بالعلوم الأصولية والفرعية، وحضي التجاني بفرصة حضور أحد دروسه بمسجد مجاور لداره التي نزل بها، وأثنى على درسه، وأنه قد حظي بمقابلة رجلٍ متضلعٍ في العلم، وذاكرٍ بالمذاهب، لا يضاهيه أحدٌ في علمه، حتى لا تكاد مسألة تصعب عليه [54].

كما ذكر أبو موسي بن عمران الهواري [55]، ومحمد بن عمران بن أبي الدنيا الطرابلسي[56]، والفقيه أبي العباس الأعجمي المشرقي، وذكر الكثير من العلماء الذين كانوا بطرابلس الغرب في ذلك العهد أو بلغته أخبارهم [57].

4 ـ المقابر والمزارات:

أولى التجاني المقابر والمزارات أهمية خاصة، وذلك من خلال تعدادها، فنجده يذكر مقابر الصالحين فبدأ بقبر التقي الصالح سيدي أبي محمد عبد الوهاب القيسي رحمه الله، فأوضح مدى تأثيره في أهل المدينة، وأشاد بعلمه وورعه؛ حتى قيل أنه رأى النبي صلى الله عليه وسلم أربعمائة ليلة [58].

نجده كذلك لا يغفل الإمام والفقيه أبي إسحاق الإجدابي، المعروف عنه سعة علمه وفقهه، ولقد وقف عنده أثناء وجوده بالمدينة[59]، والملاحظ إغفاله لقبر سيدي أبي محمد عبد الله الشعاب، المعروفة بجبانة سيدي الشعاب رغم ذكره لمسجده كما ورد فيما سبق.

في حين نجد الرحالة لا يتوقف كثيراً عند سبل العيش، التي يعتمد عليها الأهالي وطرق رزقهم، بل يروي أن سكان المدينة يتخذون من الصيد بالبحر حرفة لهم، ولا يعملون بالزراعة على الرغم من أن أرضهم من أخصب ما يكون، وأنها ذات جودة عالية، ولكن السكان لا يمتهنون الزراعة ولا يهتمون بها، ونوه إلى أن سكان المدينة لا يتاجرون بما هو من المدينة، ولا يسمحون لأحد أن يخرجه، بل أنهم يعاقبون من يعمل على إخراج شيء من طعام المدينة خارجها [60].

الخلاصة: ـــ

من خلال الحديث عن أهم المعالم الحضارية التي وردت في رحلة التجاني يمكن أن نستنتج الآتي: .

1. إنَّ التجاني عمل على وصف كل ما شاهدته عينه، فكان يعتمد الموضوعية في وصفه، وعمد إلى إيضاح وجهة نظرة، ولم يسقط من رحلته إلاَّ ما لم يكن لديه معلومات عنها، واعتمد أسلوب ذكر كل ما هو موجود أمام عينه وشاهده، أو ما وجد آثاراً له فسأل عنها وأوردها، بذلك كان منهجه الوصفي، وقد برع في استخدامه.

2. تُعَدُّ الرحلة من أفضل الرحلات التي كُتِبت عن طرابلس الغرب، لما امتازت به من سرد لمعلومات تاريخية ذات تركيز على إقليم طرابلس الغرب، لم تُتَح لغيره من الرحالة، والظروف التي أحاطت بها.

3. إنَّ الرحالة كان فناناً في عرضه لرحلته، انطلاقاً من الأسلوب الذي أتبعه، وكذلك في استخدام الجمل الأدبية التي تليق بالرحلة في العديد من المواطن، والتدليل بالشعر في بعض الأحيان، وطريقة عرضه للمعلومات، فالقارئ لرحلته يشعر بأنه يشاهد المدينة بأم عينه من شدة براعة المؤلف، فضلاً عن النظام الذي سرد به الرحلة، فنجده يصف الشوارع ثم السور فالمساجد، ويكمل بالمقابر والمزارات في استرسال بديع ومنظم، ولعل هذا من أسباب توليه ديوان الإنشاء في دولة الموحدين.

4. إنَّ رحلة التجاني تُعَدُّ من أفضل المصادر، التي يمكن الرجوع لها عن تاريخ طرابلس الغرب إن لم يكن أدقها، فهي عمل يمكن للأجيال المتعاقبة الاستفادة منه والرجوع إليه للانتهال منه فيما يخص تاريخ المدينة.

5. إنَّ الرحالة قد حصل على عوامل القيام برحلته على أكمل وجه، فإقامته بين سكان المدينة وترحيبهم به، وفتح أبواب منازلهم له، مكنه من جمع المعلومات، وتدوين كل ما يشاهده بدقة وراحة، فلا يقلقه شيء، فلا يكدره أمر طوال فترة أقامته.

الهوامش.

(1) المصراتي، علي مصطفي: أعلام من طرابلس، طرابلس (مكتبة الفرجاني ،1972) ط2، ص21. 26.

(2) روسو ،ألفونس : الحوليات التونسية من الفتح العربي حتى احتلال فرنسا للجزائر، ت : محمد عبد الكريم الوافي، بنغازي (منشورات جامعة قاريونس ، 1992) ، ص 29.

(3) عبد الجليل، مفتاح محمد : وصف طرابلس في الرحلة التجانية ، مجلة الدعوة الإسلامية، طرابلس (منشورات كلية الدعوة الإسلامية، 2000.م) ع17، ص533.

(4) التجاني، أبو محمد عبدالله بن محمد بن أحمد: الرحلة ، تح: حسن حسني عبد الوهاب، تونس (منشورات المطبعة التونسية ،1958.م) ص2621.

(5) زيادة، نقولا : لمحات من تاريخ العرب ، بيروت (دار الكتاب اللبناني ،1996) ص 301.

(6) الحموي، شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله : معجم البلدان، بيروت (دار بيروت، 1979) مج 4 / 25 .

(7) البكري، أبو عبيد الله : المسالك والممالك ، تونس (الدار العربية للكتاب ، د.ت)ج79/2.

(8) التجاني، مصدر سابق ، ص 271.

(9) التجاني، المصدر نفسه ، ص271.

(10) نفسه، ص271.

(11) الحموي، المصدر السابق، مج25/4، 26 .

(12) عباس، إحسان وآخرون: ليبيا في كتب الجغرافية والرحلات، طرابلس (دار ليبيا لنشر، 1968.م)، ص138.

(13) المرجع السابق نفسه، ص138.

(14) شلابي، سالم سالم : عناوين علي نواصي المحروسة ، طرابلس القديمة ، طرابلس (منشورات مكتبة الفرجاني، 1994.م)،ص149 .

(15) التجاني، المصدر السابق ، ص238.

(16) المصدر السابق، ص238.

(17) المصدر السابق، ص240.

(18) الأمير، عبدالله بن الأغلب أحد أمراء بن الأغلب المشهورين، المغدور به من قبل جنده وقد نزل بطرابلس الغرب وقتل 290/هـ، أنظر : الزاوي ، الطاهر : تاريخ الفتح العربي في ليبيا ، طرابلس (منشورات دار الفتح والتراث العربي ، 1963) ط2 ، ص228.

(19) أبو إسحاق إبراهيم بن إسماعيل اللواتي، من أبرز علماء ليبيا وتلقي علمه بطرابلس فلم يغادرها أبداً وحين سئل عن علمه ومن أين أكتسبه أجاب من باب هوارة، انظر: الزاوي ، الطاهر : أعلام ليبيا ، طرابلس (مكتبة الفرجاني ، 1961.م) ص120.

(20) عبد العزيز بن عبد العظيم بن عبد السلام بن عبيدة، من أعلام ليبيا وتلقي علمه بطرابلس واستفاد من العلماء المارين بالمدينة كان موجوداً عام 707هـ، أنظر : الزاوي ، أعلام ليبيا ، ص179.

(21) التجاني، المصدر السابق ، ص245.

(22) الزاوي ،الطاهر : معجم البلدان الليبية ، طرابلس (دار مكتبة النور ، 1968)، ص97.

(23) التجاني ، المصدر السابق ، ص240.

(24) المصدر نفسه ، ص245.

(25) المصدر نفسه، ص245

(26) الجامع الأعظم هو جامع الزيتونة، م الجوامع التي بنيت في فترات مبكرة من الفتح الإسلامي لبلاد المغرب الإسلامي وقد تولي به ابن أبي الدنيا منصب الخطابة والقضاء في الدولة الحفصية زمن الأمير أبو زكريا بن حفص ، وهذا المنصب يأتي في الأهمية بعد الخلافة والإمارة ، انظر: المصراتي ، أعلام من طرابلس، ص91

(27) الزاوي، معجم البلدان الليبية، ص92.91.

(28) التجاني، المصدر السابق، ص253.

(29) الزاوي، أعلام ليبيا، ص240.

(30) المصراتي، مرجع سابق، ص 124.

(31) الزاوي، معجم البلدان، ص314.

(32) التجاني، مصدر سابق، 237.

(33) الزاوي، أعلام ليبيا، ص196.

(34) التجاني، المصدر السابق، ص247 ـ 248.

(35) التجاني، مصدر سابق، ص249.

(36) المصدر السابق، ص294.

(37) المصدر السابق، ص251.

(38) المصدر نفسه، ص246.

(39) سالم، مرجع سابق، ص67.

(40) التجاني، مصدر سابق، ص253.

(41) ذكر اليهود من ضمن سكان طرابلس الغرب كأقلية ضئيلة، وهى مؤلفة من البربر الذين تحولوا لليهودية، أنظر: روسى، إتوى: ليبيا منذ الفتح حتى سنة1911.م، ت: خليفة التليسي، طرابلس (دار العربية للكتاب ،1991) ط2،ص 58.

(42) التجاني، المصدر السابق، ص 238.

(43) الجميز: شجرة خصت بها بلاد المشرق، فهي شجرة عظام على شكل التين وورقه أصغر من ورق التين وحملة كحمل التين إلاَّ أنهما مختلفان وإنما تنتبت ملاصقة للعود وفي طعمه حلاوة شديدة تصحبه غثاثة، وأهل طرابلس يقولون أن بلادهم في حكم أهل المشرق لنبات هذه الشجرة الوحيدة به. االتجاني، المصدر السابق، ص246.

(44) سالم، الرجع السابق، ص204.

(45) التجاني، المصدر السابق، ص259.

(46) التليسي، خليفة محمد: حكاية مدينة، طرابلس / تونس (منشورات الدار العربية للكتاب ، 1985) ط2، ص37.

(47) التجانى، المصدر السابق، ص246.

(48) المصدر السابق نفسه، ص246.

(49) عبد الجليل، المرجع السابق، ص543.

(50) التجاني، المصدر السابق، ص251، 252.

(51) التليسي، المرجع السابق، ص38.

(52) الزاوي، معجم البلدان، ص304.

(53) التجاني، المصدر السابق، ص252.

(54) التجاني، المصدر السابق، ص254.

(55) أبو موسي بن عمران الهواري الطرابلسي: والهواري نسبة لقبيلة هوارة، كما أنه فقيه تولي قضاء طرابلس نيفاً وثلاثين سنه، أتصف بالعدل وحسن السيرة والأخلاق، فأرسل له الخليفة الحفصي إبراهيم بن المنتصر

الحفصي سنة 758.هـ، ليتولى القضاء بتونس فبقي بها نيفاً وعشرين شهراً ونال شهرة واسعة، توفي سنة 760 هـ. أنظر: الشريف، الطيب: ملامح ثقافية عن علماء ليبية وأدباءها في الأعصر الإسلامية، مجلة الدعوة الإسلامية، طرابلس (كلية الدعوة الإسلامية، 2000.م) ع17، ص528 . ص529.

(56) عبد الحميد بن أبي بركات بن عمران بن أبي الدنيا الطرابلسي: عالم جليل، رفيع القدر، داع صيته وله شعر جيد، رحل في طلب العلم الي مصر وتونس ثم عاد ليستقر بطرابلس الغرب، وما لبت أن ينزل بها حتى دعاة الأمير أبو زكريا بن حفص إلى تونس ليوليه القضاء بها سنة 671. هـ والخطبة بالجامع الأعظم، وهو من الأهمية بحيث يلي منصب الخلافة والإمارة مباشرة، توفي سنة 684. انظر الشريف، المرجع نفسه، ص527.

(57) التجاني، المصدر السابق، ص257.

(58) المصدر نفسه، ص267.

(59) المصدر السابق، ص267.

(60) المصدر السابق، ص258.